حكايات الأخوين جريم

بقلم
الدكتور مصطفى ماهر
مدرس الأدب الألمانى بالألسن

يعرف الأدب الإنسانى فى عصوره المختلفة وبيئاته المتعددة حالات قليلة اشترك فيها أخوان أديبان فى نشاط أدبى دام ما دامت حياتهما . هناك فى الأدب الفرنسى مثلا حالة الأخوين جونكور ، وفى الأدب الألمانى حالة الأخوين ياكوب وفيلهلم جريم Jacob und Wilhelm Grimm اللذين ذاعت شهرتهما وعمت بلاد الدنيا من إلى أقصاها أقصاها بفضل مجموعة الحكايات التى أسمياها Kinder- und Hausmärchen

وولد ياكوب عام ١٧٨٥ وولد أخوه فى العام التالى ١٧٨٦ ، وامتد بهما العمر نحو ثمانين عاماً (مات ياكوب سنة ١٨٦٣ ومات فيلهلم سنة ١٨٥٩) قضياها معاً لا يكاد الواحد منهما يفترق عن أخيه ، فى عمل مشترك ، سادته الألفة التامة ولم تعكر صفوه سحابة اختلاف قط ، يكمل الواحد منهما الآخر ، ياكوب تغلب عليه صفة العالم وفيلهلم تغلب عليه صفة الشاعر ، وينتجان معاً ما سنعرض له فى هذا الحديث .

وكان مولد « الجهبذين اللغويين » – كما كان جوته يسميهما – فى مدينة هاناو Hessen بمقاطعة هسن Hanau ، تلك المدينة الصغيرة التى تقع عند ملتقى نهر كنتسج Kinzig بنهر الراين وتتميز بمبانيها الأثرية وأشهرها كنيسة على الطراز القوطى ودار للبلدية وقصر منيف ينسب إلى أمراء المنطقة ، وتطل على واد هادئ جميل . كان الجد وأب الجد من كهنة الكنيسة البروتستانتية ، أما الأب فقد احترف القانون وغرس تقليد دراسة القانون فى أسرته فاتجه إليها اثنان من أبنائه . أما الأم فكانت من مدينة كاسل من منطقة هسن ذاتها . ومات الأب ، وخلف وراءه أولاده الستة ، صغاراً لم يكمل أكبرهما تعليمه ، فانتقلت بهم الأم إلى بلدتها كاسل . ونعرف أن ياكوب ، الأخ الأكبر ، قد اختلف إلى المدرسة الثانوية بكاسل حتى أتم دراسته بها ، وكذلك فعل أخوه فيلهلم . كذلك نعرف لهما أخاً نبغ فى التصوير هو لودفيج اميل وشغل منصب الأستاذية بأكاديمية الفنون بكاسل ، وأختاً لوته Lotte تزوجت فيما بعد وزير الدولة بالمنطقة (لودفيج هازنفلوج) .

فلما أتم ياكوب دراسته الثانوية بكاسل عام ١٨٠٢ رحل إلى ماربورج والتحق بجامعتها واتصل هناك بأستاذ عظيم هو فريدريش كارل فون سافينى Savigny مؤسس المدرسة التاريخية فى القانون ، لفت

نظره إلى أهمية العامل التاريخى فى الدراسات الإنسانية ، وتوطدت الصلة بين التلميذ والأستاذ على نحو فريد . حتى إذا رحل الأستاذ إلى باريس عام ١٨٠٥ لحق به تلميذه ياكوب هناك ليعاونه فى الأعمال التحضيرية لكتابه عن تاريخ القانون الرومانى .

وكان ياكوب قد اهتم فى تلك الأثناء بالأدب الألمانى القديم بما قرأ من مؤلفات تيك وبودمر ، واهتم خاصة بديوان شعراء الغزل القدامى Minnesänger الذى نشره بودمر Bodmer . فانتهز ياكوب فرصة وجوده فى باريس وأطلع على مخطوط الديوان المذكور المحفوظ بها فى « المكتبة الأهلية » . فزاد شغفه وتأكد عزمه على التعمق فى دراسة فقه اللغات الجرمانية والأدب الألمانى القديم .

وعاد ياكوب إلى كاسل فوجد أخاه فيلهلم قد أتم مثله دراسة القانون فى جامعة ماربورج أيضاً وعاد إلى كاسل . والتحق ياكوب بوظيفة فى الإدارة الحربية ، ما لبث أن فقدها بعد أن احتلت جيوش نابليون ألمانيا وغيرت من أمورها ما غيرت . فى وسط هذه المشاكل والهموم أسلمت الأم روحها ، وتركت لياكوب وفيلهلم الأشقاء الصغار أمانة فى عنقهما ، فكفلاهم على خير ما استطاعا ، أما ياكوب فقد كرس نفسه لهم فلم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأما فيلهلم فقد أرجأ زواجه حتى بلغ الأربعين . لقد كان ترابط الأشقاء على النحو ، وترابط الشقيقين ياكوب وفيلهلم خاصة ، سبباً من الأسباب الهامة التى جعلتهما يحسنان فهم الصلة العائلية ويهتمان بجمع « الحكايات » ، وما الحكايات إلا عنصر من عناصر « الصلة العائلية الوثيقة ، بجمع الصغار والكبار على أمر فيه متاع لهم وخير » .

وفى عام ١٨٠٨ — عام وفاة الأم — عين ياكوب « أميناً للمكتبة الملكية » وعضواً فى مجلس الدولة . كذلك شغل فيلهلم منصباً فيها . فعكف الأخوان على الدرس والبحث حتى اضطربت الأحوال من جديد عام ١٨١٣ ثم استقرت بعودة الأمير الناخب إلى المقاطعة . وما لبث هذا أن عين ياكوب فى منصب مستشار للشئون الخارجية وكلفه بمهام رسمية فى باريس وفى مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ فأحسن أداءها . وفى عام ١٨١٦ عين ياكوب أميناً مساعداً للمكتبة العامة بكاسل ، فعاود هو وأخوه البحث والدرس واستمرا عاكفين على العمل المثمر حتى عام ١٨٢٩ . وتعتبر الفترة من عام ١٨١٦ إلى ١٨٢٩ أعظم وأخصب فترة فى حياتهما . وانتهت حياتهما فى كاسل باختلاف مع الأمير الناخب دفعهما إلى الاستقالة من منصبيهما وقبول منصبى أستاذين بجامعة جوتنجن وأمناء لمكتبة جوتنجن . وظلا هناك حتى عام ١٨٣٧ حيث أقيلا من منصبيهما ونفيا من المدينة ، لأنهما كانا ضمن « سبعة جوتنجن » (سبعة أساتذة من الجامعة) الذين احتجوا على قيام ملك هانوفر بالغاء الدستور . ولا تزال مدينة جوتنجن إلى يومنا هذا رمزاً للاخلاص السياسى للإنسانية ، ولا يزال « سبعة جوتنجن » علماً على ذلك الاخلاص . وما انقضى عامان حتى استدعاهما الملك فريدريش فيلهلم الرابع وعينهما أعضاء فى أكاديمية العلوم ببرلين ، وفى هيئة التدريس بالجامعة .

لقد جمع ياكوب فى شخصيته شخصيات عديدة فى وقت معاً ، شخصية العالم الخالد وشخصية الأديب الشهير وشخصية السياسى المخلص وشخصية الإنسان ذى القلب الكبير . فى عام ١٨٤٨ اختير عضواً فى برلمان فرنكفورت فظل يعالج السياسة إلى جانب أعماله الأخرى حتى مات عام ١٨٦٣ ، وكان أخوه فيلهلم قد سبقه إلى جوار ربه عام ١٨٥٩ .

ومن ينزل اليوم مدينة كاسل يجد فيها « متحف الأخوين جريم » يعمل على تخليد ذكراهما ، وذكراهما خالدة بما قدما من أعمال .

أعمال الأخوين جريم

ينبغي أن نقسم الأعمال الأخوين جريم إلى مجموعات ثلاث :

١ ــ أعمال ياكوب جريم وحده :

ــ آثار قانونية ألمانية (١٨٢٨) .

ــ الميتولوجيا الألمانية .

ــ النحو الألماني (١٨١٩ ــ ١٨٣٧) .

ــ تاريخ اللغة الألمانية (١٨٤٨) .

والمؤلفان الأخيران يعتبران إلى يومنا هذا أساس دراسة النحو الألماني وفقه اللغة الألمانية وتاريخ اللغة الألمانية ، مهدا الطريق لأبحاث أكثر من قرن ونصف من الزمان قامت على الأساس الذى أرسياه ، لم تغير من الجوهر شيئاً ، وان عدلت الكثير من التفصيلات . وما زال دارس الفيلولوجيا الألمانيةوالعالم فيها يستعملان المصطلحات التى وضعها الأستاذ الأول ياكوب جريم .

٢ ــ أعمال فيلهلم جريم وحده :

ــ أساطير ألمانية (١٨١٦ ــ ١٨١٨) .

ــ أسطورة البطولة الألمانية (١٨٢١) .

ــ تحقيقات عديدة لنصوص بالألمانية القديمة .

٣ ــ أعمال الاثنين معاً :

ــ القاموس الألماني (١٨٥٢ ــ ١٨٦٣) .

وقد مات فيلهلم وتركه لأخيه ياكوب الذى وصل فيه إلى كلمة Frucht . وكانت نية الأخوين اخراج قاموس فى سبعة أجزاء ، فلما ماتا ، أكملت أجيال من العلماء ما بدأ العملاقان ، شيئاً فشيئاً حتى تم آخر جزء عام ١٩٦٠ ، وأصبح القاموس يضم ٣٢ جزءاً . وعلى العلماء الآن أن يتناولوا القاموس من أوله مرة ثانية حتى يعيدوا صبه فى قالب واحد متجانس .

ــ حكايات الأولاد والبيوت (١٨١٢ ــ ١٨٥٧) من عملهما معاً . ولكنا نعرف أن فيلهلم قام بالقسط الأكبر خاصة بعد عام ١٨١٩ .

الحكايات

كلمة Märchen التى استعملها الأخوان جريم لـ « حكاية » هى تصغير كلمة ألمانيــة maere كانت تستعمل كثيراً فى أدب العصور الوسطى للدلالة على « الخبر » و « الحكاية » . ثم ظهرت كلمتان Märlein, Märchen للـدلالة على الحكـاية على وجه الخصوص ، الحكاية من نوع حكايات « كليلة ودمنة » . وانتهى الأمر إلى استقرار كلمة Märchen دون غيرها .

وقد اختلف العلماء فى تعريف الحكاية . وأطرف تعريف هو « أنها صورة أدبية على نحو حكايات الأخوين جريم » والشـائع تعريف العالمين بولته وبوليفكا Bolte & Polivka أنها قصة نثرية استقاها الخيال الأدبى من دنيا السحر ، قصة عجيبة لا تلتزم بملتزمات الحياة الواقعية ، ويستمتع بسماعها الصغير والكبير جميعاً » . ويضيف البعض إلى ذلك أنها تكون ذات مضمون أخلاقى لا يعبر عنه صراحة فى الغالب ، بل يفهم من السياق . ويفرقون بين الحكاية والأسطورة Sage ، فالحكاية عامة ، والأسطورة تدور حول شخص بعينه ومكان بعينه ، وأمر بعينه على شبه أساس من التاريخ . ويفرقون بين الحكاية والأسطورة والمثل Fabel ، والأخير يبرز فيه المغزى الأخلاقى فى صورة عظة أو درس تحكمه عبارة كثيراً ما تنتشر بين الناس حكمة مأثورة أو مثلا سائراً .

الحكاية والاهتمام بالأدب الشعبي

يرجع الفضل فى الاشتغال بالأدب الشعبى فى ألمانيا إلى منتصف النصف الثانى من القرن الثامن عشر وعلى وجه التحديد إلى الأديب الألمانى يوهان جوتفريد هردر Johann Gottfried Herder الذى تأثر تأثراً

عميقاً بأعمال جيمس مكفرسون وخاصة ما أطلق عليه هذا The Works of Ossian وبأعمال توماس بوسى وخاصة كتـــابه Reliques of Ancient English Poetry فطفق يجمع الأغانى الشعبية واستعمل لها لأول مرة كلمة فولكسيد Volkslied أغنية شعبية . بل وتجاوز هردر الجمع إلى حث الأصدقاء والمريدين على محاكاته فى هذا المضمار (جوته مثلا (: ونشر هردر مجموعاته (تشمل أغانى ألمانية وأجنبية مترجمة إلى الألمانية) عام ١٧٧٨ و ١٧٧٩ . وتعرف اليوم بـ « أصوات الشعوب فى أغان » Stimmen der Völker in Liedern وهو اسم أطلقه عليها يوهانس فون موللر عام ١٨٠٧ :

ويعتمد اهتمام هردر بالأدب الشعبى على نظريته فى تطور الإنسانية . فقد كان يقسم تاريخ نمو الإنسانية إلى أطوار تناظر أطوار نمو الإنسان : طفولة — شباب — نضج . ويرى أن كل طور من هذه الأطوار قائم بذاته له قيمته الخاصة به . فطور الطفولة مثلا ليس طور شباب ناقص لم يستكمل نواحيه بعد ، وإنما طور الطفولة طور قائم بذاته له تفكيره واحساسه وانفعالاته . ومن هنا كان اهتمامه بانتاج طور الطفولة فى تاريخ الإنسانية ذلك الإنتاج الذى يتمثل فيما يتداوله الناس فى الأوساط الشعبية من أغان وحكايات وكتب وأساطير ، لا فى أمة بعينها بل فى الأمم كلها بلا استثناء .

وقد فتحت أفكار وأعمال هردر أفاقاً جديدة ، ظلت تتسع على مر الأيام خاصة بفضل ما أولته إياها الحركة الرومانتيكية من عناية . وأهم ما جمع من الأدب الشعبى فى ألمانيا :

أولا — من الأغانى الشعبية

١ — مجموعة هردر المشار إليها « أصوات الشعوب فى أغان » .

٢ — بوق الصبى العجيب لأخيم فون أرنيم وكليمنس برنتانو (١٨٠٦—١٨٠٨)

٣ — أغانى شعبية قديمة من شمال ألمانيا وجنوبها . للودفيج أولاند (١٨٤٤) .

٤ — الأغانى الشعبية التاريخية للألمان . لروخوس فون ليلينكرون (١٨٦٤ — ١٨٦٩) .

ثانياً — من الكتب الشعبية

اهتم بها يوزف جوريس ونشر عنها بحثاً هاماً عام ١٨٠٧ . وما لبث تيك وشفاب وزيمروك أن أخرجوا هذه الكتب للناس إما مترجمة أو محورة . والمقصود بالكتب الشعبية ، كتب ظهرت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لتسلية النبلاء والأوساط . وقد اشتهر منها كتاب « الدكتور فاوست » الذى تأثر به جوته .

ثالثاً — الأساطير

— أساطير ألمانية لفيلهلم جريم (١٨١٦—١٨١٨) رابعاً من الحكايات الشعبية :

رابعاً — من الحكايات الشعبية

١ — مجموعتى ياكوب وفيلهلم جريم . الطبعة النهائية (السابعة عشرة) عام ١٨٥٧ .

٢ — حكايات شعبية تورنجية (١٨٢٣) للودفيج بخشتاين .

٣ — حكايات شعبية شلزفيجهو لشتاينية (١٨٤٥) لكارل مولونهوف .

٤ — حكايات شعهية مكلنبورجية (١٨٧٩) لكارل برتش .

حكاية الأخوين جريم

تعتبر الحكايات التى جمعها الأخوان جريم أشهر ما جمع من الأدب الشعبى الألمانى اطلاقاً بل ربما من الأدب الشعبى فى الدنيا كلها . فمن فى ألمانيا والنمسا

وسويسرا لم يقرأ الـ Märchen ومن فى البلاد الناطقة بالفرنسية لم يقرأ الـ Contes de la famille ومن فى البلاد الناطقة بالإنجليزية لم يقرأ الـ Fairy tales من منا لا يعرف حكاية بيضاء الثلج وحكاية ذات القبعة الحمراء ؟

بدأ الأخوان جريم بوحى من أفكار هردر عام ١٨٠٦ ، بحماس الشباب (ياكوب ٢١ سنة وفيلهلم ٢٠ سنة) فى جمع الحكايات التى يحكيها الآباء للأبناء ، ويتحاكاها الصغار والكبار فى منطقة هسن التى شهدت مولدهما وارتبطا بأرضها أوثق الارتباط . وكانا وهما يقومان بعملية الجمع يتصوران عملهما على النحو التالى : والكلام لهما :

« يحدث عندما تجتث العواصف نبات الأرض أو يأتى عليه ما شاكلها من المصائب التى ترسلها السماء ، أن تظل بقعة صغيرة من الأرض قرب سياج منخفض أو قرب شجيرات قائمة على طريق آمنة ، تلوذ بها سنابل متفرقة ، تبقى مستوية على عودها . فاذا طلعت الشمس بعد زوال الكرب ، بما يفيد الزرع نمت السنابل وحيدة مهملة لا يمتد إليها منجل مبكر ليحصدها ويؤدى بها إلى حجرات التخزين . حتى إذا جاء الصيف وأشرف على نهايته وبلغت السنابل نضجها وكمال امتلائها ، أتت أيادى فقيرة تلتمسها ، وتضمها سنبلة إلى سنبلة ، وتربطها بيد العناية ، وتحملها إلى الدار ، وتحتفى بها أكثر من احتفائها بالحزم الضخمة . وتظل السنابل طوال الشتاء غذاء الناس ، بل ربما ظلت البذر الوحيد للمستقبل .

هذا ما خطر لنا عندما رأينا ، كما رأى آخرون ، أن الكثير مما ترعرع فى الماضى قد تلاشى ، بل تلاشى معه حتى مجرد التفكير فيه . ولم يبق منه إلا ما يختلج بين جنبات الشعب من أغان وكتب قليلة وأساطير وحكايات منزلية بريئة . كانت أماكن الدفء عند المدفأة وعند موقد الطهى ، وسلالم الأسطح ، وأيام الأعياد التى ظل الناس يحتفلون بها ، والمراعى والغابات الهادئة ، والخيال الصافى ، كانت هذه كلها السياج الذى حماها ونقلها من عصر إلى عصر » (مقدمة طبعة ١٨١٩) .

واكتملت عام ١٨١٢ مادة الجزء الأول فصدر يضم حكايات جمعت من منطقة هسن عند الراين والكنسج ، جمعت على الطبيعة . كان الأخوان يلتقطانها من أفواه راويها أو رواتها ويسجلانها كما هى ، لا يمدان أيديهما إلى مضمونها قط ، وإنما يتناولان الأسلوب فيهذبانه ويصبان الكلام فى قالب متجانس . فأخرجا من الأصل الشفهى ما كان به من كلمات غريبة لا قبل للكثيرين بها ، واستبعدا الكلمات الأجنبية ، والكلمات التى تناسب الأولاد . فجاء الأسلوب متشابهاً فريداً فى نوعه .

ولما لقى الجزء الأول اقبالا عظيما أسرع الأخوان جريم فأخرجا جزء ثانياً جمعا مادته من المنطقة حول مونستر وباديبورن بمقاطعة فستفاليا ، وكذلك من منطقة كاسل . بل ضما إلى ذلك حكايات من النمسا ومن بومن Deutschböhmen ومن غيرها من المناطق .

ويذكر الأخوان جريم بالامتنان فلاحة فى الخمسين من عمرها من قرية قرب كاسل ، اسمها السيدة فيمنن Frau Viehmännin قصت عليهما جانباً كبيراً من حكايات الجزء الثانى . « كانت السيدة فيمنن ما تزال قوية البنية ، لا تجاوز الخمسين من عمرها . وكانت ملامح وجهها توحى بالثبات والفهم والظرف ، وعيناها تنظران فى وضوح وحدة . كانت تحفظ الأساطير القديمة مسجلة فى ذاكرتها القوية وتقول هى نفسها أن تلك هبة لم تمنح للكثيرين ، وأن هناك من لا طاقة لهم على حفظ الأشياء مترابطة معاً . أما هى فكانت تحكى واعية ، متأكدة من نفسها ، تحكى بحيوية شديدة ، وتجد متعة فى الحكاية عندما تلقيها أولا على سجيتها ، ثم تعيدها ثانية فى بطء حتى نتمكن من تسجيلها . . . وكانت لا تغير الكلام مهما كررت . » .

مصدر هذا الكنز من الحكايات

عاصر الأخوان جريم عالم اللغويات الهندية تيودور بنفاى Theodor Benfey وكانا على رأيه الذى يتلخص فى أن الحكايات الشعبية المنتشرة بين الناس فى أوروبا مثلها مثل لغاتهم ، تنحدر من أصل هندو جرمانى ، وأنها على الأرجح انطلقت من الشرق (من الهند) إلى الغرب . وتتبع بنفاى الأصل الهندى (انتشاتانترا Pantschatantra فوجد أنه قد ترجم إلى الفارسية البهلوية فى عهد كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٩) ومن هذه الترجمة جاءت الترجمة العربية « كليلة ودمنة » حوالى عام ٧٥٠ . ثم نقلت الترجمة العربية إلى السريانية والإغريقية فى القرن الحادى عشر ، ثم أنشئت من الترجمة الإغريقية ترجمات مختلفة إلى الإيطالية واللاتينية والألمانية وإلى لغات سلافية . فانتشرت فى الربوع الأوروبية .

ونظرية بنفاى التى تعرف فى صورتها الحديثة باسم « النظرية الهندية » لا تزال تجد لها مؤيدين كثيرين . كما يهاجمها أصحاب نظريات أخرى ، ويعتمدون فى هجومهم على أنها مبنية على عدد قليل جداً من الحكايات ، وما ينطبق على هذا العدد القليل لا يتحتم انطباقه على الحكايات كلها .

ويرجع البعض حكايات جريم إلى أصول من ألف ليلة وليلة . والحق أننا نجد حكايات ليست بالقليلة واضحة الصلة بـ « ألف ليلة وليلة » . إليك ما أعرف منها (والرقم بين القوسين رقم تسلسلها فى الطبعة النهائية للحكايات) :

— قصة الصياد وزوجه (١٩).
— اللص ومعلمه (٦٨) .
— ستة يضربون فى الأرض (٧١) .
— الجبل الذهبى (٩٢) .
— العصافير الثلاثة (٩٦) .
— ماء الحياة (٩٧) .
— العفريت فى زجاجة (٩٩) .
— جبل سيميلى (١٤٢) .

وهناك اتجاه يرى أن الجزم بأصل واحد للحكايات كلها تقييد لا مبرر له ، وأن الحكايات نشأت فى بيئات متعددة . وقامت دراسات تفصيلية للميزات التى تميز كل بيئة من البيئات المقترحة ، استتبعها تقسيم الحكايات إلى مجموعات حسب مصادرها . وأيا ما كان المنبع الذى تفجرت عنه هذه الحكايات ، فالمهم أنها الآن فى صورتها هذه ملك للإنسانية كلها .

وتبلغ حكايات جريم ٢٠٠ حكاية تضمها نحو ٦٠٠ صفحة من القطع المتوسط بحروف صغيرة . وتتفاوت الحكايات فى الطول ، بعضها لا يبلغ العشرين سطراً ، وبعضها يصل إلى نحو ١٠ صفحات . وأشهرها :

١ — ملك الضفدع .
٢ — الذئب والعنزات السبع .
٣ — هنزل وجريتل .
٤ — أشنبوتل (سندريللا) .
٥ — ذات القبعة الحمراء .
٦ — بيضاء الثلج .
٧ — الأوزة الذهبية .
٨ — الأرنب والقنفد .
٩ — القط ذو الحذاء الطويل .
١٠ — العفريت فى زجاجة .

وقد أصبحت « الحكاية » Das Märchen بفضل أعمال جريم نوعاً أدبياً يعالجه الأدباء ، كما يعالجون الرواية والقصة القصيرة وما إليها . وأشهر من عالج نوع الحكاية فى ألمانيا تيك ، فوكيه ، شاميسو ، هاوف ، هوفمان . وامتزج نوع الحكاية بأنواع أخرى ، فهناك دراما حكائية Märchendrama وأوبرا حكائية Märchenoper

حكاية جميل سيميلى

يحكى أنه كان هناك أخوان ، أحدهما غنى والآخر فقير ، أما الغنى فكان لا يبر بالفقراء ، وأما الفقير فكان يعيش من تجارة الحبوب عيشة ضيقة بائسة حتى أن اليوم كان يمر فلا يكسب لزوجه وأولاده لقمة يقيمون بها أودهم . وفى يوم من الأيام ، اتفق أن سار بعربته خلال الغابة فرأى فى ناحية منها جبلا عظيما غير ذى زرع ، فوقف أمامه ساكناً مندهشاً ، لأنه لم يكن قد رآه من قبل . وبينما هو واقف كذلك ، رأى اثنى عشر رجلا فظاً طويلا مقبلين ، فأيقن أنهم من قطاع الطرق ، فدفع عربته إلى أجمة وارتقى شجرة هناك وانتظر ما سيحدث . فاذا الاثنا عشر يتقدمون إلى الجبل ويصيحون : « يا جبل سمسى ، يا جبل سمسى ، افتح » . فانشق الجبل القاحل من وسطه ودخل الاثنا عشر رجلا ، ثم انقفل . وبعد برهة انفتح الجبل وخرج الرجال يحملون أثقالا على ظهورهم ، فلما اكتملوا خارج الجبل صاحوا : « يا جبل سمسى ، يا جبل سمسى ، اقفل » فالتأم الجبل ولم يعد أحد يرى فيه مدخلا لداخل ، وراح الرجال الاثنا عشر لحالهم ، فنزل الفقير من فوق الشجرة عندما تواروا عن بصره تماماً ، واشتاق إلى معرفة السر الذى يخفيه الجبل فى بطنه ، فتقدم وقال : « يا جبل سمسى ، يا جبل سمسى ، افتح » فانفتح الجبل أمامه ، فدخل ، فاذا الجبل كله مغارة ملأى بالفضة والذهب ، وفى المؤخرة أكوام من اللآلىء والجواهر البراقة مكومة كأكوام الحبوب . فلم يعرف الفقير أى شىء يفعل ولم يعرف ان كان يحق له أن يأخذ لنفسه من الكنوز شيئاً . وأخيراً ملأ جيوبه بالذهب وترك اللآلىء والجواهر لم يمسها . فلما خرج قال : « يا جبل سمسى ، يا جبل سمسى ، اقفل » . فانقفل الجبل وعاد بعربته إلى داره . منذ ذلك اليوم راحت همومه ، فقد أصبح الآن فى استطاعته أن يشترى بالذهب لامرأته وأولاده الخبز بل والنبيذ كذلك . وعاش سعيداً مستقيما ، يبر بالفقراء ويحسن إلى كل إنسان . فلما فرغ ماله ذهب إلى أخيه واستلف منه مكيالا وذهب وأحضر مالا من جديد ولم يمد يده إلى الكنوز الكبيرة . ولما أراد للمرة الثالثة أن يجلب مالا ، راح لأخيه واستلف منه المكيال. لكن الغنى كان يكن له منذ وقت طويل الحقد على ثروته وعلى بيته الجميل الذى أنشأه ، وكان لا يستطيع أن يفهم مصدر ثروة أخيه ولا الذى يفعله بالمكيال . ففكر فى حيلة ودهن قاع المكيال بالقار ، فلما أعيد إليه المكيال ، وجد فيه قطعة ذهب عالقة بالقار . فذهب إلى أخيه وسأله : « ماذا كلت بالمكيال ؟ » . فأجابه : « قمحاً وشعيراً » . فأخرج له قطعة الذهب وهدده بأن يشكوه إلى المحكمة إن هو لم يقل له الحقيقة . فحكى له كل ما حدث . فأمر الغنى من فوره باعداد عربة وانطلق وقد عقد النية على أن يغتنم الفرصة خيراً من أخيه وأن يجلب كنوزاً تختلف عما جلب الآخر كل الاختلاف . فلما بلغ الجبل صاح : « يا جبل سمسى ، يا جبل سمسى ، افتح » . فانشق الجبل ودخل . فاذا الكنوز كلها أمامه ، فظل مدة لا يعرف بأيها يبدأ . وأخيراً حمل من الجواهر ما استطاع وشرع ينقل حمله إلى الخارج . ولكنه — وقد ملكت عليه الكنوز فؤاده وحسه — نسى اسم الجبل وصاح : « يا جبل سيميلى ، يا جبل سيميلى، افتح » . ولكن ذلك لم يكن الاسم الصحيح ، فلم يتحرك الجبل وظل مقفلا . هنالك تملكه الخوف ، وكلما أطال التفكير فى الاسم كلما ازدادت أفكاره اضطراباً والكنوز كلها لا تجدى فى ذلك نفعاً . فلما حل المساء انفتح الجبل ودخل الاثنا عشر رجلا ورأوه فضحكوا وقالوا : « أيها الطائر ، لقد أمسكنا بك أخيراً . أتظن أننا لم نلاحظ أنك دخلت هنا مرتين ؟ لقد أفلت مرتين ، وفى الثالثة لن تخرج منها » . فصاح قائلا : « لم أكن ذلك ، بل كان أخى » . وظل يتوسل

ويقول ما شاء ليبقوا على حياته ، فلم يغن ذلك عنه شيئاً ، وقطعوا رأسه » .

ذات القبعة الحمراء

يحكى أنه كانت هناك بنت صغيرة حلوة ، كان كل من يراها يحبها ، وكانت جدتها أكثر الناس حباً لها ، كانت من فرط حبها لها لا تعرف كم من الهدايا تقدم إلى الصغيرة . وذات مرة أهدت إليها قبعة صغيرة من القطيفة الحمراء لاقت بها فلم تكن البنت تريد بها بديلا بل كانت تلبسها على الدوام ، فأطلق الناس عليها اسم « ذات القبعة الحمراء » . وفى يوم من الأيام قالت لها أمها : « تعالى يا ذات القبعة الحمراء ، إليك قطعة من الفطير وزجاجة من الخمر ، اذهبى بهما إلى جدتك فهى مريضة واهية ، وإذا طعمتهما انتعشت ، اذهبى قبل القيلولة ، فاذا سرت ، فكونى مهذبة مؤدبة ، ولا تنحرفى عن الطريق ، فتقعى وينكسر الزجاج ، ولا تنال الجدة شيئاً . فاذا دخلت حجرتها فلا تنسى أن تسلمى عليها ولا تبدئى بالالتفات حواليك إلى كل ناحية » .

فقالت ذات القبعة الحمراء : « سأحسن قضاء ذلك » . ووضعت يدها فى يد أمها وعاهدتها على ذلك . كانت الجدة تسكن بعيداً فى الغابة ، على مسيرة نصف ساعة من القرية . فلما بلغت ذات القبعة الحمراء الغابة ، صادفت الذئب ، ولم تكن تعرف أى حيوان شرير هو ، فلم تخشه . قال لها : « سلام عليك يا ذات القبعة الحمراء » . فردت عليه قائلة : « شكراً جميلا لك يا ذئب » . — « إلى أين فى هذا الوقت المبكر ، يا ذات القبعة الحمراء ؟ » — « إلى جدتى » — « وماذا تحملين هنا تحت مريلتك ؟ » — « فطيراً ونبيذاً — بالأمس خبزنا الفطير ولا بد أن تنال الجدة المريضة الواهية شيئاً منه يفيدها وتزيد به قوة » — « وأين تسكن جدتك يا ذات القبعة الحمراء ؟ » . فقالت « على مسيرة ربع الساعة من هنا ، داخل الغابة ، تحت شجرات البلوط الثلاث الكبيرات ، هناك منزلها تحت سياج من شجيرات الجوز ، كما تعلم » . وقال الذئب فى نفسه : « هذا المخلوق الصغير الطرى لقمة سمينة ، ألذ طعماً من العجوز . عليك إذن بالحيلة حتى تفوز بالاثنتين » . وسار هنيهة بجوار ذات القبعة الحمراء ثم قال : « يا ذات القبعة الحمراء ، انظرى إلى الزهور الجميلة حوالينا . لم لاتلتفتين حولك ؟ أظن أنك لا تسمعين قط الأطيار تنشد نشيداً حلواً ؟ إنك تسيرين فى طريقك كما لو كنت ذاهبة إلى المدرسة ، والدنيا لذيذة هنا فى الغابة » .

ففتحت ذات القبعة الحمراء عينيها ، وما أن رأت أشعة الشمس تتراقص خلال الأشجار ذات اليمين وذات الشمال ، والدنيا كلها مليئة بالأزاهير الجميلة ، حتى توقفت وفكرت . « ماذا لو قطفت لجدتى باقة يانعة من الزهور آخذها لها معى ، فتفرح بها ، ما زال الوقت مبكراً وسأصل على أى حال فى الموعد المناسب » . وانحرفت عن الطريق إلى الغابة وطفقت تبحث عن أزهار . وكانت إذا قطفت وردة تقول فى نفسها : هناك أجمل منها ، وجرت بعيداً لتلتمسها ، حتى توغلت فى الغابة توغلا . أما الذئب فاتجه إلى بيت الجدة وقرع الباب . « من هناك ؟ » — « أنا ، ذات القبعة الحمراء ، أحضرت لك فطيراً ونبيذاً افتحى » . — فصاحت الجدة « اضغطى على المقبض ، فأنا واهنة لا أقوى على النهوض » . وضغط الذئب على المقبض فانفتح الباب وراح من فوره دون أن يتفوه بكلمة واحدة إلى سرير الجدة وابتلعها . ثم ارتدى ملابسها ولبس غطاء رأسها وتمدد فى سريرها وأنزل عليه الستائر .

كانت ذات القبعة الحمراء قد جرت وراء الأزهار حتى جمعت منها الكثير ولم تعد تقوى على حمل المزيد ، فتذكرت جدتها وسلكت السبيل إليها . واندهشت عندما وجدت باب بيتها مفتوحاً . ولما دخلت الحجرة

أحست شيئاً غريباً وقالت فى نفسها : « آه ، ربى ، كم أنا اليوم خائفة ، وكنت دائماً أحب أن أكون عند جدتى » . ثم قالت : « صباح الخير » . ولكنها لم تتلق رداً . فتقدمت إلى السرير وشدت الستائر فاذا الجدة راقدة ، وغطاء رأسها نازل على وجهها ، وشكلها عجيب . « آه ، يا جدتى ، مالى أرى لك أذنين كبيرتين» . « حتى أحسن سماعك » . — « آه ، يا جدتى مالى أرى لك عينين كبيرتين» — « حتى أحسن رؤيتك » . « آه ، يا جدتى ، مالى أرى لك يدين كبيرتين» — « حتى أحسن الامساك بك » — « ولكن يا جدتى ، مالى أرى لك هذا الفم الكبير البشع » — « حتى أحسن افتراسك » . وما قال الذئب هذا حتى قفز قفزة من السرير وابتلع ذات القبعة الحمراء المسكينة .

فلما أشبع الذئب ملذاته عاد إلى السرير وتمدد فيه ونام وشرع يحدث شخيراً عالياً . واتفق أن كان الصياد يمر بالبيت فى تلك اللحظة ، فقال فى نفسه : « ما للعجوز تشخر ، لا بد أن أطل عليها ربما أعوزها شىء » . فدخل الحجرة ، وما اقترب من السرير حتى وجد الذئب راقداً فيه . فقال : « أأجدك هنا أيها المجرم العتيد ، لقد طال بحثى عنك » . وأوشك أن يهيىء سلاحه لقتله ، فخطر بباله أنه يحتمل أن يكون الذئب قد افترس الجدة وأنه يمكن انقاذها . فلم يطلق ناراً بل التمس مقصاً وشرع يشق بطن الذئب النائم . ولم يكد يقص بالمقص بضع قصات حتى رأى القبعة الحمراء تهل ، وبعد قصات أخرى قفزت البنت خارجة تصيح : « آه ، كم تملكنى الرعب ، لقد كان الظلام دامساً فى بطن الذئب » . ثم خرجت الجدة على قيد الحياة ، وكانت لا تكاد تقوى على التنفس . وأسرعت ذات القبعة الحمراء فأحضرت أحجاراً كبيرة ملأت بطن الذئب بها ، فلما استيقظ أراد أن يقفز فراراً ولكن الأحجار كانت ثقيلة ، فخر صريعاً .

هنالك فرح ثلاثتهم ، أما الصياد فسلخ فراء الذئب وغدا به إلى داره ، وأما الجدة فأكلت الفطير وشربت النبيذ الذى أحضرته ذات القبعة الحمراء واستعادت قواها وأما ذات القبعة الحمراء فقالت فى نفسها : « لن تنحرفى مرة ثانية فى عمرك عن الطريق لتجرى فى الغابة ما دامت أمك قد نهتك عن ذلك » .

